ماردين في موكب حافل وسرنا قبل كل الى كنيسة الكلدان لنشكر الله على تسهيل طريقنا وسلامتنا (لهُ بقيَّة)

النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

النصرانية في الجزيرة (تابع)

ثم انَّ مؤرخي الاسلام مع قلة ما كتبوا عن عرب الجزيرة في الجاهليَّة ذكروا غير مرَّة نصرانيَّتهم وصرَّحوا كما بيَّنَّا سابقاً بنصرانيَّة بني اياد بن نزار (المشرق ١٤ : ٨٨٩) سواء قيل انَّهم تنصَّروا قبل دخولهم في حكم الرومان او بعد خروجهم من بلاد فارس اذ لحقوا بالجزيرة . وكذلك اثبتوا نصرانيَّة ربيعة المحتلين في ديار ربيعة وديار بكر . قال ابن قتيبة في كتاب المعارف (طبعة مصر ص ٣٠٥) : « وكانت النصرانيَّة في ربيعة » . وقال صاحب السيرة الحلبيَّة (ج ٣ ص ٩٥) : « ومن قبائل العرب المتنصرة بكر وتغلب ولخم وجهراء وجذام » . وبقيت بعض هذه القبائل على نصرانيتها زمناً طويلاً بعد الاسلام كما ترى في الآثار الباقية وفي كتب العرب والسريان بل ربما ذكروا اساقفة لبني مَعدّ وتنوخ وعقيل (١ . وجاء في ترجمة ماروتا اسقف تكريت انهُ جعل تحت حكمهِ ثلاثة اساقفة كانوا يدبّرون قبائل العرب وهم اسقف بيت رامان او بيت رزيق ثم اسقف بني جرم واسقف بني ثعلبة (٢

وكان نصارى غربيّ الجزيرة يتردَّدون الى مشهد القديس سرجيوس او سرجيس

---

١) اطلب الآثار الدريانية مجموعة لند (Land: *Anecdota Syriaca*, I, 47, 50) وفي منتخبات لاگرد (Lagarde: *Analecta Syriaca*, p. 108)

٢) اطلب السمعاني (المكتبة الشرقية ٢ : ٤١٠)

الشهيد في الرُّصافة (Sergiopolis) ويعظمونهُ وكانت صورتهُ مع الصليب على راياتهم الحربيَّة. قال الاخطل (اطلب ديوانهُ ٣٠٩):

لمَّا رأونا والصليب طالعا ومار سرجيس وموتًا ناقعا
واصبروا راياتنا لواسعا خلَّوا لنا راذان والمزارعا

وقال جرير:

فبالصليب ومار سرجسَ تنقي شهباء ذات مناكبٍ جمهورا

وقال ايضاً:

يستنصرون بمار سرجسَ وابنهِ بعد الصليب وما لهم من ناصرِ

ثامناً ويزيد شهادة العرب عن النصرانيَّة في الجزيرة ما رووهُ عن اديرتها هناك فمَّا ذكرهُ ياقوت (في معجم البلدان ٢ : ٦٤١ — ٧١٠) دير الابيض قرب الوهـا وهو مشرف على حرَّان. ودير أحويشا بسعرت (قال: فيهِ ٤٠٠ راهب). ودير باناوا بقرب جزيرة ابن عُمَر . ودير باعربا بين الموصل والحديثة. ودير باغوث بين الموصل وجزيرة ابن عُمَر . ودير باطّا بين الموصل وتكريت . ودير بانخايال (او مخائيل) في اعلى الموصل . ودير الرُّصافة قرب الرقَّة . ودير الرمَّان بين الرقَّـة والخابور . ودير الزرنوق على فرسخين من جزيرة ابن عُمَر . ودير الزعفران (مرَّ ذكرهُ). ودير زكّى على باب الرها . ودير صاوبا من قرى الموصل . ودير عبدون قرب جزيرة ابن عمر . ودير العذارى من اعمال الرقة بين الموصـل وباجرمي . ودير قنـري على شاطئ الفرات في نواحي ديار مضر على اربعة فراسخ من منبج كان يسكنهُ ٣٧٠ راهباً. ودير الكلب بين الموصل وجزيرة ابن عمر كان الناس يلتجئون الى رهبانه اذا أصيبوا بداء الكلب فيبرأون . ودير أُبَّى على الفرات من منازل بني تغلب. ودير مار سرجيس على الفرات. ودير متى بشرقي الموصل شهير . ودير مرتوما بميافارقين. ودير مر جرجيس فوق بلدٍ بينها وبين جزيرة ابن عمر . ودير مرماعوث على شاطئ الفرات . ودير مر يوحنَّا الى جانب تكريت على دجلة . ودير منصور مُطـلّ على نهر الخابور . ودير يونس في جانب دجلة مقابل الموصل

غير انَّ النصرانيَّة في الجزيرة منذ اواسط القرن الخامس تشوَّهت باذاليل البدع

ولاسيما البدعة اليعقوبيّة التي انتشرت في تلك الجهات انتشار العدوى القاتلة ففصلتها عن مركز الوحدة واوقعتها في لُجّة الضلال

قال يوحنا الافسسي في تاريخه السرياني انّ ما جرى بين قبائل العرب المتنصرة من الجدال بسبب المجمع الخلقيدوني شتّت شمل كثيرين منهم حتى اصبحوا خمس عشرة فرقة. ومثلهُ قال ميخائيل الكبير وابن العبري في تاريخهما الكنسي (١. على انّ الكتبة اليعاقبة يلقون التبعة على الكاثوليك وكان الاحرى بهم ان يلقوها على سوء تصرّفهم وعصيانهم على المجمع المسكوني

وكان رهبان النساطرة واليعاقبة يتسابقون الى عرب البادية ليبثّوا بينهم زؤان اضاليلهم. كأُحودمه (٥٥١ — ٥٧٥) تلميذ يعقوب البرديعيّ الذي اخبر عنهُ ابن العبري في تاريخه الكنسيّ (٢ « انهُ لمّا صار مفريانًا على المشرق ذهب ليدعو الى النصرانيّة القبائل العربيّة الساكنة في الخيم وردّ منهم كثيرين وجعل عليهم كهنة ورهبانًا وابتنى لهم ديرين يدعى الواحد دير عين قنّا والآخر دير جشان بقرب تكريت »

واشتهر بين اليعاقبة بعد ذلك « جرجس اسقف العرب » فان هذا كان من علماء عصره نقل الى السريانيّة عدّة تآليف لليونان منها كتاب الاورغانون لارسطو والّف التآليف العديدة في شرح الكتاب المقدّس واسرار الكنيسة وغير ذلك وكان كرسيهُ في عاقولا. بين قبائل العرب. ومياسرهُ بالسريانيّة شهيرة. كانت وفاتهُ سنة ٧٢٤ م

وفي اخبار الاخطل وقومهِ وحروبهم مع زُفر بن الحارث وقبائله القيسيّة شواهد لامعة تبيّن انّ النصرانيّة بقيت بين عرب الفرات زمنًا طويلًا بعد الاسلام في عهد بني اميّة

الباب التاسع
النصرانيّة بين عرب شمالي سوريّة

انّ في شمالي سوريا مفاوز متسعة تمتدُّ من نواحي دمشق الى تدمر شرقي جبل

١) اطلب كتاب العلّامة نولدك في امراء غسّان T. Noeldeke: *Die Ghassânischen Fürsten*, p. 31-32

٢) اطلب طبعة ابلوس (Abbelos: *Greg. Barhebraei Chron. Ecclesiasticum*, II, 100)

الشيخ ثم حمص وحماة وتبلغ الى جهات حلب وتتناول البوادي الفسيحة التي تنبسط في تلك الانحاء شرقاً حتى نهر الفرات. فهذه الصحاري الرحبة كانت ايضاً من قديم الزمان محطاً لقبائل العرب تجول في بسطتها دون ان يضايقها سكّان المدن وهناك تسرح مواشيها وترعى ابلها في ايام الربيع فاذا اشتدّ عليها القيظ تقرّبت من الارياف او جاورت ضفاف الفرات

فتلك البلاد الواسعة كانت في القرون السابقة للاسلام ديارًا لقبائل عربيّة جليلة اخصُّها بنو كلب كانوا يسكنون منها القسم المتّصل بالفرات شرقاً في البيداء المعروفة بالسماوة. قال الهمداني في صفة جزيرة العرب (ص١٢٩): «اما كلب فساكنها السماوة ولا يخالط بطونها في السماوة احد. ومن كلب بارض الغوطة عامر بن الحصين وابن رباب المقلي»

وقال في موضع آخر عن قبائل الجهات التي نحن في صددها:

وان جُزْت جبل عاملة تريد قصْد دمشق وحمص وما يليها فهي ديار غسّان من آل جفنة وغيرهم. فان تياسرتَ من حمص عن البحر الكبير وهو بحر الروم وقعتَ في ارض بحراء... ثم من ايسرهم ثمّا يصل البحر تنوخ... ثم تقع في نصارى وغير ذلك الى حدّ الفرات الى يأس في برية خُساف وهي من الدهناء ومنها تخرج الى تدمر ذات اليمين وهي تدمر القديمة وهي جانب السماوة

«وما وقع في ديار كلب من القرى تدمر وسلميّة والماصبيّة وحمص وهي حميرية وخانها مما يلي العراق حماة وشيزر وكفرطاب لكنانة من كلب ثم ترجع بكنانة كلب من ديارها هذه الى ناحية السماوة والفرات من المدن تلّ منّس وحرص وزعرايا وسبيج. وسبيج بينهم وبين بني كلاب الى حدّ وادي بطنان»

لا شكّ انّ كل هذه النواحي التي كان عرب البادية يقيمون فيها لم تحرَم من الدعوة النصرانية ولو لم يكن لنا حجّة لتأييد قولنا غير موقع ديارها لكفى به دليلاً لانها واقعة كما ترى بين فلسطين والشام وجهات انطاكية وحلب وانحاء الرها وكلها بلادٌ اصابت سهماً معلًّى من الدعوة المسيحيّة لقربها من ينابيع الخلاص فلا غرو ان تكون جرت اليها منها جداول قبل بقيّة الاقطار بعد صعود الرب بزمن قليل

وفي هذه الانحاء تعدّدت في القرون النصرانيّة الاولى الكراسي الاسقفيّة وليس

في المدن فقط بل في القرى ايضاً حتى الصغيرة (μικροκωμίαι) كما يشهد على ذلك القديس باسيليوس في رسالته ١٩٠ الى امفيلوخيوس (١

وورد في الآثار الكتابيَّة او التواريخ القديمة اسماء عدَّة اساقفة كانوا يسوسون الرعايا المتفرّقة في المقاطعات التي نحن في صددها وقد وقّع كثيرون منهم على اعمال المجامع النيقاوي والقسطنطيني والافسسي والخلقيدوني

وقد اثبت حضرة الاب سبستيان رنزفال في مقالته عن زينب (المشرق السنة الاولى ص ٩٨٧ — ٩٩٠) ما كان للنصرانيَّة من النفوذ في تدمر والبلاد المجاورة لها في القرن الثالث للمسيح بفضل السلام السائد على تلك الانحاء. كما ظهر ذلك النفوذ ايضاً في المجمع المنعقد سنة ٢٦٩ في انطاكية للحكم على بولس السميساطي فحضره ثمانون اسقفاً وحرموه

وقد صرّح في ذلك القرن ديونيسيوس الاسكندري بنصرانيَّة تلك الاصقاع حيث كتب للبابا القديس اسطفانس (٢ : « ان اقاليم سوريَّا كلها مع بلاد العرب التي تمدُّها بصدقاتك وبلاد ما بين النهرين تصادق على تعاليمك »

ويؤيد ذلك اخبار السيَّاح الذين سكنوا في تلك الاقطار فاجتذبوا اليهم القبائل المجاورة لهم كالقديس ملكوس او مالك الذي روى قصتهُ العجيبة القديس ايرونيموس (٣ وكالقديس اليسان الواسع الشهرة في القريتين (المشرق ٩ : ٦٥٨) والقديس سمعان العمودي الذي مرَّ ذكرهُ وكان مقامهُ في شمالي سوريا في الجبل المنسوب اليه. وقد افاد تاودوريطس (٤ في تاريخهِ ان الاسماعيليين اي العرب كانوا يتقاطرون الى عمودهِ وانَّهُ نصَّر منهم الوفاً مؤلفة (Ismaelitarum millia innumerabilia). وفي حياة القديس نونُس انهُ لما كان في بعلبك عمَّد ثلاثين الفاً من العرب (٥ ويُضاف الى ما تقدَّم ما وجدهُ الاثريون في شمالي سوريَّا من الآثار النصرانيَّة

---

١) اطلب مجموعة migne (Migne, P. G. t. 32, col. 697)
٢) راجع التاريخ الكنسي لاوسابيوس الكتاب السابع الفصل الخامس
٣) اطلب اعمال الآباء اللاتين (Migne P. L. XXIII, 55)
٤) اعمال الآباء اليونان (Id., P. G. vol. 74 col. 1041)
٥) فيها (Id., P. G. vol. 83 col. 668)

العديدة كبقايا اديرة واخربة كنائس ونقوش نصرانيَّة بديعة غنيت بها متاحف اوربَّا وقد رأينا بعض تلك الابنية في سياحتنا الى بادية تدمر (في المشرق ٩ : ٩٥٣)

ومن ذلك اثر فريد اكتشفهُ رحَّالة اوربي قبل ١٢ سنة في زَبَد ليس بعيدًا عن حلب فيهِ كتابة بثلاث لغات يونانيَّة وسريانيَّة وعربيَّة تاريخهُ باليونانيَّة سنة ٨٢٣ للاسكندر الموافقة لسنة ٥١٢ للمسيح . وهو اوَّل اثر يُعرف بالقلم العربي كُتب ١١٠ سنوات قبل الهجرة . وهذا الاثر نصراني محض نُقر في حجر ليوضع على مشهد أقيم هناك لتذكار الشهيد القديس سرجيوس . وهذا يثبت ما قلناه سابقًا عن تعبُّد العرب لذلك الشهيد . واخبر ساويرس البطريرك الدخيل وزعيم البدعة اليعقوبيَّة ان عرب البادية كانوا اذا تنصَّروا يطلبون العمودية في كنيسة القديس سرجيوس في الرصافة حيث قُتل شهيدًا (روى ذلك في ميمرهِ السابع والخمسين الذي قالهُ في ٧ تشرين الاوَّل سنة ٥١٤ اعني سنتين بعد تاريخ الاثر المذكور) (١

ومن الشواهد التاريخيَّة المثبتة تنصُّر العرب في شمالي سوريَّا ما رواه ميخائيل الكبير وابن العبري عن يوحنَّا اسقف افسس من كتبة القرن السادس انهُ لمَّا حصل الانقسام بين الملكيين واعداء المجمع الخليقدوني تفرَّق العرب النصارى وسكن منهم قسم في بادية تدمر في النبك والقريتين وحُوَّارين . وبقي هؤلاء العرب على نصرانيتهم زمنًا طويلًا بعد الفتح الاسلامي كما يشهد عليهِ ياقوت الحموي (٤ : ٧٧) حيث قال عن القريتين في زمانهِ « انَّ اهلها كلهم نصارى »

ولنا في كتب العرب ما يزيل كل ريب عن القبائل المتنصرة في شمالي سوريَّة وقد رأيت في ما نقلناهُ عن وصف الجزيرة للهمداني انَّ السهول الواقعة بين الشام وحلب والفرات كان معظم سكَّانها من غسَّان وتغلب وتنوخ وعلى الاخص من بني كلب الذين تفرَّدوا بسكنى الحماة الممتدَّة من الشام الى نواحي الموصل وكانوا يسكنون خصوصًا في جهات تدمر وسليَّة حتى سُمِّيت تلك الجهات بادية كَلب . فهذه القبائل كلها كانت نصرانيَّة فامَّا غسَّان وتغلب وتنوخ فقد مرَّت الشواهد على نصرانيتها فبقيت قبيلة بني كلب . ودونك الادلَّة على تديُّنها بالدين المسيحي

---

١) اطلب مجلة الابحاث الشرقية (Riv. d. Studi Orientali, I, p. 577-587)

ان بني كلب بطن من قضاعة وهي القبيلة اليمنيَّة الاصل التي اجمع الكتبة على تنصُّرها عموماً كابن قتيبة واليعقوبي والنويري وخصُّوا بالذكر بعض بطونها كبني سليح وبني جرم. ثم ليس في كتب المؤرخين لشارة الى شرك كلب بل كثيراً ما يصرّحون بنصرانيَّة اعيانهم كبحدل بن بُحَيف من سادتهم وهو ابو ميسون زوجة معاوية وكعرافصة الكلبي ابي نائلة زوجة الخليفة عثمان بن عفَّان

وذُكر في المقتضب لياقوت (ص ٣٦) وفي تاريخ ابن عساكر في ترجمة نائلة « انَّ بني كلب كلهم كانوا نصارى ». وكذلك ذكر ابن خلدون في تاريخهِ (٢ : ٢١٩) انهم دخلوا في دين النصرانيَّة

ولمَّا ظهر الاسلام كان بنو كندة وبنو كلب من جملة الذين لم ينكروا دينهم كما اخبر بذلك ابن هشام في سيرة الرسول (ed. Wüstenfeld, p. 282) وكذا روى ياقوت في المقتضب عن مدَر كلب اي اهل البادية فقال: « اسلمت كلب غير مذرها كانوا نصارى » وبقي الذين اسلموا منهم على عاداتهم النصرانيَّة كما روى في كتاب البلدان لابن الفقيه (ص ٣١٥) فقال عنهم « انهم مسلمون في اخلاق النصارى » واخبر ابن قتيبة في عيون الاخبار (ص ١٧٤) والجاحظ في البيان والتبيين (٢ : ٦٢) انَّ بعض من اسلم منهم كانوا يضربون الناقوس ويترددون الى الكنيسة التي تعمدوا فيها

وكان من جملة امرائهم الذين يتولون تدبيرهم ابو كرب الذي عُرف بنصرانيته فنحه يستنيانوس الملك تدبير قبائل السماوة كما روى المؤرخ بروكوبيوس (١

وربما دعا المؤرخون هذه القبائل المتنصرة بالمستعربة واليهم التجأ الروم عند ظهور الاسلام لمحاربة خالد بن الوليد. قال ابن البطريق في تاريخهِ انَّ هرقل « استجلب المستعربة من غسان وجذام وكلب ولخم وكل من قدر عليه من الاعراب وأمَّر عليهم قائداً من قوَّادهِ يقال لهُ ماهان » (٢

فترى من هذه النصوص ان كتبة العرب ايضاً يوافقون اليونان والسريان في نسبة النصرانيَّة الى القبائل المتفرقة في شمالي سوريَّة (لهُ بقيَّة)

١) اطلب (Procope, de B. P.,I, 19)

٢) اطلب الصفحة ١٦ من الجزء الثاني من طبعتنا